قصر جبل سيس الاموي

تقرير تمهيدي عن أول حملة حفريات قامت بأموال

« جمعية البحث العلمي الألمانية »

(نيسان ـ حزيران ١٩٦٢)

تعريب الدكتور نور الدين حاطوم

١ ـ الموقع

يقع جبل سيس على بعد ١٠٥ ك م في الجنوب الشرقي من دمشق على خط مستقيم . واليوم توجد طرق جيدة حتى خان أبو الشامات ، ثم يصبح الدرب مستقيماً نحو بغداد مسافة ٢٠ ك م ، ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي ، وأخيراً نحو الجنوب الغربي . والجبل محاط بمنطقة صخور بركانية ولا يمكن بلوغه إلا بدرب طوله ٥ ك م نحو الغرب .

أما الدرب الأصلي فيستمر نحو الجنوب ماراً من الزلف والنمارة وينتهي أخيراً في وادي مرحان . (ويبدو انه يوجد درب مستقيم من الضمير إلى جبل سيس . وهو الدرب نفسه الذي سلكته الآنسة ج . بيلل عام ١٩١٣ ولم يكن مستخدماً إلا للقوافل) .

ومن الوجهة الجيولوجية يشكل جبل سيس في الشمال جزءاً من جبل حوران : اللجا . وفي شرقي اللجا توجد الصحراء البركانية وتسمى الصفا . وكانت الصفا قبل الإسلام مرعى

للقبائل الرحل . وما زالت على هذه الحال إلى اليوم . وقد استطعنا في آخر الحفريات تعداد أكثر من ٢٥٠ خيمة يسكنها البدو مع إبلهم ومواشيهم .

وكمية الأمطار الشتوية ، كثرت أهميتها أو قلت ، هي التي تعين كما في الماضي مدة إقامة البدو .

إن مخطط السيد سوفاجيه يرى بوضوح التشكل الجيؤلوجي للجبل ووجود بحيرة قليلة العمق يتوقف ماؤها على الأمطار الشتوية ويتبخر بكامله في أشهر الصيف . ويدل أيضاً على ينابيع الماء الصغيرة . ويبدو أن مستوى البحيرة ازداد متراً ونصف المتر منذ إنشاء القصر . ولذا تجب دراسة هذه الأسباب من قبل جيؤلوجي خبير .

كما يدل مخطط السيد سوفاجيه على توزيع الأبنية حول البحيرة : فالقسم الهام والأعرض يضم القصر ، والحمام ، والجامع . والقسم الأصغر يقع في الشمال عند أسفل فوهة البركان (اللوحة I ، I)[١] .

ويعد أكثر من ٤٠ طللاً من بينها خانات ومخازن وقصور صغيرة ، وعلى كيلو متر واحد من شرقي الحمام يقع سد صغير .

وربما كان هذا المكان أكبر موقع للأمويين ما زال محفوظاً في الصحراء . وما من أي أثر أمكن وجوده لمبنى يرجع إلى ما قبل الإسلام .

ويبدو أن بعض المنشآت بنيت من قبل نفس البنائين كهؤلاء الذين شادوا القصر والحمام والجامع .

٢ — الدراسات السابقة

بدأ الكشف الأثري لمنطقة حوران عام ١٨٠٥ . وقد نقل تاريخه حديثاً د . سورديل .

في عام ١٨٦٢ كان ملخيور فوغيه أول من زار جبل سيس . وقد خلف لنا رسماً أولياً للقصر وملاحظات ما زالت عظيمة الفائدة . كما نشر أيضاً مخططاً ورسماً للحمام الذي تخرب جزئياً بعد زيارته بقليل . وكان مقتنعاً بأن تاريخ القصر يرجع الى العهد الروماني ، بالرغم من عدم وجود كتابات اغريقية أو لاتينية . فقد وجد في صخر فوهة بركان صغيرة بعض كتابات فدل على انها سبأية وعلى أخرى كوفية « يبدو أنها ترجع الى عصور الإسلام الأولى »

(١) للاطلاع على اللوحات والأشكال راجع النص الأصلي وملحقاته في القسم الأجنبي من المجلة .

فنقلها ثم أعاد نسخها في الملحق الكتابي وترجمها . ذكر فيها أربعة أسماء عربية ، منها اسم رجل يدعى محمد بن الوليد ؛ ويبدو أن هذه الأسماء اعتراها النسيان فيما بعد .

وفي ١٨٩٣ زار ماكس فون اوبنهايم جبل سيس أثناء رحلته من البحر المتوسط الى الخليج الفارسي . وكان يعتقد أن هذه الأطلال رومانية وأراد أن يطابق بينها وبين الاناتا الرومانية . وما زالت قائمة أطلاله الهامة الى اليوم عظيمة بالرغم من انه خدع في طابع الجامع .

ويخيل أن دوسو درس الموقع عام ١٨٩٩ من الوجهة الكتابية وأيد أن الرومانيين أقاموا فيه مركزاً عسكرياً اعتقاداً منه بوجود الماء دوماً ، واقترح فيما بعد أن يطابق بين جبل سيس وجبل جوبيتر المعروف بعظمته ، وصار إلى أن اقتنع بأن تاريخ الأطلال يعود الى العصر الأموي .

وبعد السيد دوسو أتت جرترود بيلل في كانون الأول ١٩١٣ لتعمل في سيس ، غير أن وفاتها المفاجأة حالت دون نشر النتائج التي توصلت اليها ؛ ولا يعلم من دراساتها سوى بعض نتف من القطع التي وجدت في أوراقها الخاصة .

ولقد قامت حملات م . آلوا موزيل قبل رحلات الآنسة ج . بيلل ، ولكن كتابيه « الصحراء العربية » و « منطقة تدمر » ، وهما عظيما الأهمية الى الآن ، لم ينشرا إلا مؤخراً . ويبدو أن هذا لم يزر جبل سيس بنفسه . بيد أن معرفته العميقة بطوبوغرافية الأماكن والمصادر التاريخية ساعدته على أن يتصور تطابق جبل سيس مع اسيس الذي ذكره ياقوت . وقد عرف اسيس بأنه كان مقاماً للوليد الذي حكم من ٨٦/٧٠٥ الى ٩٦/٧١٥ .

ولا يذكر ك . آ . س . كريزويل جبل سيس في الجزء الأول من كتابه « العمارة الإسلامية الأولى » . ولكنه زاره مرتين بعد نشر الكتب . وهو الآن يهيىء الطبعة الثانية لهذا المؤلف . ولقد ارانا اهتماماً بالغاً وساعدنا دوماً .

وفي ١٩٣٦ نشر بوادوبارد نتائج ابحاثه عن « أثر روما في صحراء سورية » . وعرف كيف يفيد فيه من الملاحظة الجوية . وكان مقتنعاً بأن سيس يرجع الى العصر الروماني ، ومفترضاً هو أيضاً بأن منابع الماء كانت كافية لتمد المدينة طوال السنة ، ودعم قوله بوجود تفرع من طريق ديوقليسيان في عمان الى تدمر ماراً من النمارة والزلف وجبل سيس .

وفي ١٩٣٨ كان السيد ج . سوفاجيه مقتنعاً بأن موزيل على حق عند ما طابق بين سيس واسيس . ولقد اشتغل فيه بعض الوقت واستطاع في تقريره المنشور عام ١٩٣٩ أن يضيف ملاحظات أثرية الى بعض قرائن استخلصها من مصادر عربية مختلفة . وبعد أن تحقق من تجانس القصر والحمام والجامع استطاع ، على هذا النحو ، أن يبرهن على أن وجود الجامع في هذه المجموعة يمنع تاريخاً سابقاً للإسلام .

ثم قارن بين مميزات العمارة في هذه المجموعة المتجانسة وبين مميزات العمارة في القصور الأخرى وبرهن على أن تأسيسه يعود الى الخليفة الوليد الأول ملحقاً بذلك الدلائل التي وجدها في المصادر العربية وفسر اسم سيس ، مثل موزيل تماماً ، بتطور جدلي لاسم اسيس .

٣ ــ الحفريات

وقبل الحرب العالمية الثانية أبدى الأستاذ ارنست كونيل عن رغبته بالقيام بحفريات في جبل سيس . ولكن الحرب حالت دون ذلك . وأني لأعتبر أن مسؤوليتي ثقيلة إذا استطعت أن أحقق فكرته . كما أن اعز أمنية عندي أن يستطيع بعد موسم الحفريات أن يعرب لي عن رضاه ويشايعني فيما ذهبت إليه .

وأثناء التأهب للحفريات أمدني بعونه على صور مختلفة .

أما المال للقيام بالحفريات فقد قدمته لنا « جمعية البحث العلمي الألمانية » ، واهتبل هذه الفرصة لأعترف لهم بأعمق شكري .

وبودي أيضاً أن اشكر رئيس معهد الآثار الألماني الأستاذ كورت بيتل ومديري في معهد القاهرة الأستاذ هانس ستوك ، والسيد المدير الدكتور غروناغن على المساعدة التي قدموها لنا .

وسأذكر بالجميل المساعدة المفعمة بالتشجيع ، التي أمدني بها السادة الأساتذة هـ . كوفمان (برلين) ولا نفلوتز (بون) وبرسو (فرنكفورت) كما سأذكر المساعدة الودية التي وجدناها في شخص السيد الملحق الثقافي في سفارة الجمهورية الاتحادية الألمانية في دمشق الدكتور او . دوبينر .

وسنبقى معترفين بالجميل الى المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية على وافر إرشاداتها وخدماتها . ونود أن نشكر أيضاً السيد ، رئيف الحافظ ، رئيس المعمل الفني في المتحف الوطني الذي ساعدنا على حفظ قطع الرسوم الجدارية وتوجيه ترميم الخزف والزجاج . ونشكر السيد عدنان البني والسيد صليبي

اللذين ساعدانا بود طوال اعداد حفرياتنا ، وأخيراً السيد ابو الفرج العش ممثل المديرية العامة الذي ساعدنا دون تحفظ . ان صداقة هذا الإنسان التقي والعالم اغنتنا كثيراً . وسنحتفظ أيضاً بكل اعترافنا بالجميل للتعاون القوي للمدير العام للآثار والمتاحف السيد الدكتور سليم عبد الحق .
ونريد أخيراً أن ندلي باعترافنا لمدير منطقة دوما ومدير ناحية الضمير ، فقد أمنت مساعدتها وزياراتهما نجاح القسم الأعظم من مشروعنا .

المساعدون

لقد تدخل الأستاذ ستوك عن ود ليؤمن لنا خدمات السيد المجاز المهندس بيتر غروناور ، مندوب السيد الأستاذ حنا . كراوس مدير « معهد بحث العمارة القديمة وتاريخها » في المدرسة العليا للفنون في مونيخ . وكان من مساعدينا أيضاً السيدان كورت شميدت ، بيرنت لاوتو من مدرسة الفنون في اكس لاشابيل ، والسيد كاي رونزو من جامعة برلين الفنية . لقد عملوا بكثير من النجاح وفي شروط لم تكن جد سهلة دوماً .

وكان عدد العمال ٥٥ تقريباً وكلهم من الضمير .

مدة الحفريات

انتهت الاستعدادات للحفريات في أول نيسان ١٩٦٢ ، غير أن الظروف السياسية أخرت بدء التحقيقات حتى ٧ نيسان ١٩٦٢ . ولما كان الشتاء والصيف غير ملائمين للحفريات في هذه المنطقة ، فقد اضطررنا أن نستسلم لرياح رملية . وهذا ما ذهب بنا حتى ١٠ حزيران ١٩٦٢ .

الزوار

لقد تشرفنا بزيارة كل من الدكتور أو . دوبنر والسيد الدكتور بارتش ، مدير معهد غوتيه في دمشق ، وكذلك السيد الأستاذ او . ر . رومير ، مدير المعهد الشرقي في بيروت ، يرافقه السادة الدكاترة سانت فيلد ، والدكتور م . رونكاليا . وحظينا بزيارة لواء دمشق ومديره في الضمير .

٤ — النتائج

١ — المخطط (اللوحة II)

بدأنا الحفريات بالقصر . ان سور القصر مربع منتظم تقريباً أضلاعه ٦٧،٥٣ م . إلا الضلع الجنوبي فهو أضيق بما يقارب المتر . ومحيط أبراج الزاوية الأربعة نحو ٨،٤٠ م ، وثلاثة منها مقواة بكتل بارزة بقياس ٠،٩٥ م . وما زلنا نجهل سبب هذه التقوية ، وما إذا كان برج الزاوية الرابع قد قوي أيضا .

وفي وسط الوجوه الجانبية نجد بروزات نصف إسطوانية . وبروز الجهة الشمالية مثقوب بباب الدخول . وانصاف الأبراج بقياس ٦،٥٠ م تقريبا ، وبرج الباب ٩،١٧ م .

وسماكة الجدار حوالي ٢،١٠ م ؛ وللجدار وجهان متطابقان من كتل البازالت ، وممتلئان بأسافين البازالت والمونه .

وكان الفناء الأوسط بقياس ٣١ متراً تقريباً ومحاطاً بأروقة أبواب بعمق ٣،٨٠ م مع سبع مسافات تعتمد على دعائم . وأبواب الأروقة تنفتح في منطقة المساكن ، وعمقها كما نفترض نحن ، متساو من الجهات الأربع ويقدر بـ ١٢ متر . ويخترق هذه المنطقة من جهة الشمال ممر طوله ٥،٩٥ م ويصل المدخل بالفناء .

وكان عرض الباب الأصلي ٢،٧٢ م ؛ وفي داخل برج الدخول دهليز أمامي مقبب بشكل سريري وقياسه يتراوح بين ٣،٨٠ م و ٣،٩٠ م . والقوس المثقوب في واجهة برج الدخول بقياس ٢،٧٢ م .

وفي الجناح الجنوبي ، حيث نقبنا تماماً إحدى عشرة قاعة (اللوحة III,1) ، وجدنا ان عشراً منهـا تشكل وحدات مستقلة تتألف من بيتين . ويظهر أن البيت الذي في محور القصر نموذجي أكثر من غيره : قاعة في الوسط عرضها ٥،٢٠ م ، والبرج المتوسط يشكل بناء نصف دائريا ؛ وتتصل القاعة بأربع أخرى جانبية ترتبط مع بعضها بأبواب . إذن فالقـاعدة هي أن يكون للبيت ستة أبواب وثلاثة أخرى تؤدي الى الرواق .

ولا توجد كوة في البيت الشرقي . ونظراً لوضعه في زاوية الجناح الجنوبي ، لا يوجد إلا بابان يشرفان على الرواق ذي الأبواب . وهناك تنوع نموذجي آخر يفسر في أن البيت من جهة الشرق ، يتصل بغرفة سادسة لا تنفصل في ذاتها بجدار . ولكنها تنفتح نحو برج الزاوية بباب ارتفاعه ١٫٨٠ م فقط . وهذا يعني أن الأسكفة الوحيدة الحجر ترتكز على أعلى الكتلة البازالتية في جدار السور (اللوحة III,2) .

وليس للقاعة III إلا باب واحد يشرف على رواق الأبواب ، ويمكن اعتبارها امتداداً لهذا الرواق . وعرضها يختلف بين ٣٫٠١ م و ٣٫١٠ م وبنفس الشكل . ان النصف الغربي للجناح الشرقي نوع من مرتسم للجزء الواقع في الشرق الذي أتينا على وصفه . ومن هذا الواقع نستطيع ان نستنتج بأن توزيع الجناحين الشرقي والغربي يختلف عن الجناح الجنوبي ويجب أن يكونا أضيق منه .

أما البرج المتوسط الغربي فله كوة مماثلة لكوة الجنوبي ، ولكن لا يوجد في البرج الشرقي قاعة صغيرة مستطيلة الشكل منفصلة عن الداخل . ولم ننقب بعد تماماً الجهة الغربية للممر المؤدي من باب الدخول الى الفناء الأوسط ، ولكن من الجهة الأخرى ، ينفتح بابان ، ولم نستطع بعد تعيين اختصاصها الصحيح .

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية للممر وجدنا بناءً صغيراً من الآجر ، متهدم تقريبا ، ولما لم نجد أثراً لجريان ماء ، استنتجنا بأنه بقايا مقعد يستخدمه الحرس ويدل على فصل القصر بين قسم عام وآخر خاص .

ان الفناء الأوسط والأروقة ذات الأبواب والمدخل والممر المؤدي الى الفناء ما زالت تحتفظ تقريباً بتبليطها الأصيل بالحجر . والقاعة الرابعة كانت أيضاً مبلطة ولكن في جزء منها فحسب .

٢ — الأقسام الشاقولية

لقد بنيت أسس جدران السور دون كبير اعداد مباشرة على الصخر . ولهذا السبب تتبع الميل الطبيعي للصخر نحو الشمال . واستطعنا أن نحصل على تأييد هذا الحادث بدراسة تغيرات سوية الأرض . فاذا أخذنا قرينة صفر كقاعدة لمشرف البرج الجنوبي ـ الغربي ، فان البرج الجنوبي الشرقي يكون على ٠٫٣٦ م والبرج الشمالي الغربي يكون على ٠٫٧٦ م ، والبرج

الشمالي – الشرقي على ٠،٩٦ م . إن مدماكين من كتل البازالت يشكلان الأساسات الأصلية التي تتجاوز محاذاة الواجهة بما يقارب ٣٠ س م . والارتفاع الكلي لجدار الكتلة يساوي بمجموعه ٢،٩٠ م مع حساب الأساس الذي هو ٧٠ س م تقريبا . (اللوحة IV.1) .

إن أسس الجدران في الداخل متماثلة ولكنها أضيق . والجدران الشاقولية في الواجهات ذات سماكة متوسطة ١،٠٥ م ولكنها تتراوح بين ١،٠٣ م و ١،١١ م . والجدران المتوسطة في داخل القاعات لا تبلغ سماكتها سوى ٠،٨٥ م . وفي داخل القصر تقع كتلة البازالت أخفض بكثير من كتلة جدران السور . وفي كل مرة تلامس فيها الجدران الداخلية جدران السور ، ترتبط كتلتها به حتى ارتفاع المشرف لتأمين اتصال أقوى لجدران الطوب بالوجه البازالتي . والواقع في ذروة كتل البازالت هو أن الجدران شيدت بالطوب بقطع ٤٠ ، ١٠٢٤٠،٤٠ س م .

والنظام الوحيد الموجود هو الترتيب التالي : نصف طوبة ، طوبتان كاملتـان ، والطبقة التالية ، العكس .

وفي مكانين وجدنا طوباً على مشرف جدار السور ما زال في مكانه إلى جانب كوة البرج المتوسط الجنوبي ، ونحو غرب برج الباب (انظر اللوحة VII،1) ؛ وهذا يعني أن جدار السور ، في أجزائه البازالتية ، قد حفظ عملياً دون أن يمس حتى اليوم .

إن سوية كتل البازالت تعين لأي ارتفاع حوفظ على جدران الطوب وذلك لأن سوية مشرف جدران السور هي السوية الأعلى وتنخفض نحو الداخل حتى ١،٧٠ م و ١،٥٠ م . ولسوء الحظ ان كل هذا أخفض من سوية أسكفات الأبواب الداخلية ؛ ولكننا نعتقد بأن نوعاً من قوس ، بني بالآجر الرقيق نوعاً بين طبقة من المونة أضخم أحياناً من الآجر ، يمكن أن ينشأ من أبواب الداخل ؛ وهذا النوع من القوس وجد أحياناً بالقرب من الأبواب .

وعضادات الأبواب مقواة باطار من الخشب ، وذات مرة وجدنا منه آثاراً محفوظة جيداً (اللوحة IV.2) . وبرج الباب يتألف بكامله من أحجار البازالت ؛ وفي الخـارج ، تتوالى أحيانا مداميك البازالت الخام مع المداميك المنحوتة جيداً (اللوحات V—VIII) . والدهليز ملبس بكامله بالأحجار المنحوتة . وقوس الباب مدبب قليلاً ويتبـع في الوقت نفسه المنحنى النصف دائري للمخطط . وهو مركب بكثير من الدقة : مركب على طاق في داخل رواق الباب نفسه ومقوى هناك بمدماك طاق آخر . ويرى الأزج السريري في الذروة

مدماك كتلة أرق بكثير من الباقي ؛ وهنا في مركز الدائرة التي تشكل مخطط الطابق الأعلى للبرج ، نرى الآزج مثقوباً بفتحة ٣٠ ، ٣٠ س م . والتحام جدران السور بكتلة البرج يتأمن هنا أيضاً بمنطقة انتقال مثلثة الشكل من البازالت . ويوجد نفس النظام من أجل جدران الممر الطوبية التي هي مقواة في الأعلى بحدبات .

والباب نفسه يتألف من عضادات ظاهرة وأسكفة من ثلاثة أقسام حيث يمكن أن ترى الثقوب المحفورة لصعارير المصراعين . أما الأماكن المخصصة للصعارير السفلية فهي من الحديد وما زالت في مكانها .

وجهاز الطابق الأعلى مطابق للأول ، بيد أن الوجه الداخلي منفذ بكامله بكتل البازالت المنحوتة بدقة وانتظام . ومخطط هذا الطابق بشكل قوس نضوي . وما زلنا نجهل ابعاد جدار هذا الطابق المتجه نحو الشمال والصورة التي بني فيها ، ولكن نقدر بأن قمة البرج كان يحملها جدار متين بصورة كافية . وربما نستطيع مع بعض الحذر استخدام دلالة من رسم صغير يعطيناه إياه دوفوغيه في كتابه ؛ وهنا يرينا جداراً بسمك متر تقريبا ، يضم باباً بعرض ٢ م . ووجدنا في أسفل البرج نحو الشمال قسما من جدار من الآجر ونستطيع أن نقدر بأن هذا الجدار كان يقع في هذه الجهة من برج الدخول ، ولكن هذا الأمر يحتاج الى دليل قاطـع . وإذا اعترفنا بأن هذا التفصيل في رسم دوفوغيه صحيح احتمالاً ، لبقيت مع ذلك بعض الشكوك على قسم آخر من رسمه حيث يُري فتحتين بشكل طاقتين . والحالة الحاضرة للبناء تقودنا الى مناقضته لأنه يبقى جانبي الشباكين المتطرفين في مكانهما ، وهذا لا يسمح للزاوية التي تظهر في الجانب المرسوم على هذا النحو (اللوحة ٧) . وأكثر من ذلك نقبنا عدداً من الحجر المنحوت في أسفل البرج ، وبعد أن وضعنا بياناً بجميع هذه الأحجار ، اضطررنا أن ندعم بأنه كان يوجد على الأقل أربعة شبابيك بل وربما خمسة : ان المساند والعضادات والأسكفات تري أثر ثقوب اقتضتها الحواجز الحديدية والأماكن المخصصة لصعارير الأبواب الخشبية . وهذا ما سمح لنا بدقة أن نقرر وجود زمرتين من شباكين جـانبيين لكل واحد منهما قمريته ، ووجود قمرية ملحقة ربما كانت مخصصة لشباك خامس (اللوحة 1,2) .

ويعطينا دوفوغيه أيضاً دلالة على سطح برج الدخول عندما يتكلم عن « بناء متين ذي طابقين مقببين بالآجر » . وإذا تركنا أنفسنا ننقاد بالمشابهات لأمكننا أن نتذكر بأن الحنية

الصغرى لقاعة اجتماع الحمام في جبل سيس كانت كذلك مقببة بالآجر بنصف قبة ، كما يفسر لنا ذلك بوضوح كاف رسم الحمام الذي يرافق وصفه من قبل دوفوغيه . ولقد وجدنا أثناء التنقيب قطعاً صغيرة من الآجر تبدو لنا انها تابعة لقبة ، ولكن قبل أن نقطع في الأمر نفضل لانتظار ريثما نجد أيضاً قرائن أخرى في تتمة الحفريات . ففي النهاية الشاملة للحفريات نستطيع أن نعيد بناء واجهة الفناء بكاملها ، وهذا يعني أننا لا ننشر مخططاتنا إلا بصفة تمهيدية (اللوحة IX,1) . ان ما وجدناه في هذه المرة يقودنا الى التفكير بأن الواجهة تتركب من نظامين : القسم الأسفل ويتألف من قوسي نصف دائرة مرتكزين على دعامتين بين عمَد زاوية ، ومماثلين تماماً لأقواس الجامع في سيس حيث يكون للدعامة الابعاد نفسها على وجه الدقة ؛ وأقواس النظام الأعلى محمولة على أعمدة رخامية تستند على أحجار مسطحة مربعة يتألف بعضهـا من حجر واحد ، وسابقة للعصر الاسلامي ، وأخرى تركيبية وصممت خاصة للقصر . ومن الممكن التمييز بوضوح بين زمرتين من التيجان : الأولى آتية من أبنية أخرى مبتزة . والأخرى أكثر تواضعاً وتبدو لنا أنها نفذت للقصر نفسه (اللوحة X,1) . وأحياناً توجد على رخام التيجان والأعمدة حروف واسم نقشت بالاغريقية . والأقواس نفسها بنيت بالآجر . وهي في الواقع تتألف من قوسين وحيدي المركز ، وقد شوهد الترتيب نفسه في الآزج السريري في حمام سيس . ومن الممكن رؤية السطح الكامل للقوس الداخلي ، أما في القوس الخارجي فقد وضـع الآجر جانبياً في انصاف أقطار الدائرة .

وعلى تاج الواجهة كانت توجد شرفات وربما على ست درجات . وتوجد درابزين من الجص تستند على قواعد مربعة وأعمدة صغيرة من النظام الثاني (اللوحة IX , 2 ; X , 2) وهي أعلى من متر بقليل وبشكل أقواس ، وأخيراً بين الأقواس ثلاثة أعمدة صغيرة تشكل دعامة ، وكل هذا نفذ على نواة من أسافين الآجر مع الجص ، ومغطى بألواح مصنوعة سابقاً من الجص . ولا يوجد قواعد ، ولا طاقات ولا تيجان للأعمدة الصغيرة ، وتزيين الأقواس الصغيرة بشكل نضوة يختلف بين نموذجين : أما دوائر وحيدة المركز واما شريطان منكسران إذا نظرا اليهما جانبيا يشكلان زاوية من ٩٠° . وإذا أعدنا تشكيل قياس مسافة واحدة بدقة في النظام الثاني لتألف درابزين من ستة أقواس ، ولكن ما زلنا نجهل ما إذا كان نموذجا التزيين يتواليان ببساطة أو يوجد نظام أكثر تعقيدا ، لأن بعض الأقسام تُري نموذج الرسم نفسه من الجهتين . ووجدنا نوعين من قرميد السطح ويظهر بوضوح الشكل الذي رتبت به .

٣ — التزيين

من المؤكد عندنا أن القصر في أجزائه الخارجية كان مجللاً بالجص . فقد عثرنا على آثار منها في الركن الشرقي من البرج المتوسط للجناح الجنوبي ، وعلى مساحات كبرى في الشرق وأكثر من ذلك أيضاً في غرب برج الدخول بقيت مرئية . وعلاوة على ذلك اكتشفنا في الآثار الواقعة في شمال البرج الأصلي ، قطعاً من أقواس عمياء (مسودة) تختلف نسبها مع أقواس الدرابزين ، ولكن مشابهة لها في كل النقاط وبنفس التزيين . ولا شك في انها تؤلف جزءاً من أقواس عمياء واقعة في أعلى منطقة الشبابيك .

وفي الداخل ، وجدنا في الطبقة السفلى فقط وفي أمكنة منها بقايا تزيين جدران في مكانها . وحسب القطع العديدة للجص المرسوم المكتشف في الأطلال اقتنعنا بأن جميع القاعات كانت مرسومة ، وفنياً حسب طريقة رسم جاف . وهذا ما يفسر الكمية الصغيرة لقطع التصوير التي ما زالت محفوظة بعد . ويمكن أن يرى فيها زمرتان : إحداهما وحيدة اللون كأن يكون : أحمر ، أسود أو رماديا ؛ والثانية تمثل رسوماً ذات زخرف نبـاتي بالألوان نفسها . وبفضل الترميم الجدي النشيط الذي قام به السيد الحافظ مدير المعمل الفني في متحف دمشق حفظت بعض القطع ، ومن بينها لوحة كاملة تقريباً تمثل مربعاً من اللؤلؤ ، وفي داخله دائرة لؤلؤ ، وفي المركز زخرف ورقي ؛ وفي الاركان تزيين بشكل قلب (اللوحة XI,1) .

وحسب الفن نفسه ، أسود على أرضية بيضاء ، اوجدنا قطعة من آية من القرآن (اللوحة XI,2) .

واكتشفنا في البيت الأوسط للجناح الجنوبي القسم الأعظم من الرسم الجداري ، ويجب أن ننتظر آخر الحفريات لنقرر ما إذا كان هذا الجزء تابعاً إلى الطابق الأول أو الثاني .

ولا شك في أن داخل الطابق الثاني لبرج الدخول كان مغطى بالرسم : واعتبـاراً من الشبابيك يضم أحجاراً منحوتة عديدة مغطاة بعد بتقليد الرخام الأحمر والأبيض والأصفر المركب بشكل منقط .

وداخل أقواس القمريات مزين بخطوط ملتوية ، أسود على أبيض ، وخطوط غليظة تتوالى مع خطوط أرق منها . وفي أعلى البرج ، بين الانقاض ، ظهرت لنا قطع صغيرة مرسومة أزهاراً على أرضية سوداء . ولا نعلم على وجه الصحة ما إذا كان مصدرها من الآزج أو القاعات المجاورة للبرج .

٤ — اختصاص بعض القاعات

ومن السابق لأوانه أن نحكم على اختصاص قاعة الطابق الأول لبرج الدخول . لقد تكلم جان سوفاجيه عن قاعة اجتماعات . ولكننا نجهل ترتيب القاعات القريبة من البرج والمدخل إلى الطابق الثاني ، لذا نتحفظ باعطاء قرار نهائي . ويجب علينا أن نعلم أيضاً إذا كان الممر من الباب إلى الفناء الأوسط كان مغطى أولا ؛ فالمجال بستة أمتار الذي قسناه يبدو كبيراً نوعا ، ومن جهة أخرى يجب أن نلاحظ الميل العظيم في بلاط هذا الممر نحو الباب ، حيث أن عدم جريان الماء يجعلنا نفكر قطعاً بأن الممر كان مغطى بالأخشاب بسبب الحالة الرثة لقطع الآجر التي عثرنا عليها في الممر .

ولم نجد بعد أثراً لسلالم . ولكن القاعة الثالثة يمكن أن تكون قد أفادت كمكان لسلم . وعدا التشابه مع قصر الحير الغربي وخرانة توجد اعتبارات عملية وهي : وضع هذه القاعة بامتداد الرواق ، وفقدان كل باب إلا الباب المشرف على الرواق . وإذا لم نجد أي قرينة لسلم أو طاق فيجب الا نضطرب جدياً ، ففي العصر الذي تهدم فيه نصف القصر استعملت القاعة الثالثة مخزناً للكلس الناجم احتمالاً عن الرخام المحترق .

والقاعة الرابعة هي الوحيدة التي كانت مبلطة في جزء منها : ففي ركنهـا الشمالي يوجد مرحاض منفصل عن الباقي بجدار زاوية مفتوح على الشرق ، وكذلك مجرى ماء نعتقد أنه مصرف . وفي جنوب القاعة فرن بدائي . ان كل هذه القرائن ، ومعظم الخزف والزجاج اللذين وجدناهما في هذه القاعة تدفعنا الى أن نخصص لهذه القاعة استعمالاً عاماً ، وربما كانت مطبخاً لخدمة البيت المجاور ؛ غير أن تحاليل الخزف وحده يمكن أن يدلنا ما إذا كان هذا المطبخ يعمل في عهود القصر الاولى .

وهناك بعض الافتراضات بأن أرض القاعات كانت مغطاة بفسيفساء رخامية ، لأننا وجدنا أحياناً أثراً لطبقة رمل خشن يستعمل على وجه العموم كطبقة سفلى تحت البلاط . ويبدو حسب بعض القرائن ، ان القصر قد تهدم كثيراً أو قليلاً ، فطرأت عليه فيما بعد بعض التغيرات في القاعات تنزع الى تكييفها مع حياة بدائية حقاً (اللوحة XII) ؛ ولكننا نحتفظ بالقائمة القطعية لهذه التغيرات وتفصيلاتها للنشر القطعي ، إذ أن هذا لا يبدو لنا أن لامندوحة عنه لتقريرنا التمهيدي .

ونستطيع أن نرى في المخطط جداراً ثانوياً يؤدي من برج الدخول الى الفنـاء الأوسط ، ويظهر أنه كان متأخراً . وكذلك من أجل الجدار الذي يذهب من الـبرج نحو الجنوب ، ويؤلف على وجه التأكيد جزءاً من مربع ، قبل القسم الغربي من واجهة القصر الشمالية ، يرجع الى عصر أحدث .

٥ — أشياء مختلفة

لم نجد منها عدداً عظيماً جداً لأسباب ما زالت بحاجة الى ايضاح ؛ ومن جهة أخرى ان تعداد المواقع الأموية الأخرى لم ينشر إلا نادراً . والمقـارنة صعبة . ونفكر بنشر رسوم الخزف والزجاج وتحاليلها بعد الحفريات . والنموذج الشائع أكثر من غيره يتألف في معظمه من أواني كبرى غير مطلية كالتي رممت بكاملها في متحف دمشق ؛ وبعض الأواني لها زخارف بحز أملس ورسوم بلون أحمر فاتح ؛ وتاريخ معظمها يرجع الى العصر الأموي .

وفي الأغلب ، لم نجد إلا حطاماً من الزجاج وقطعاً ، ولكن استطعنا أن نرمم منها اثنتين بشكل يكاد يكون تاما ، إحداهما بعروة والأخرى بغيرها . ولكننا اكتشفنا اتقانات فنية أخرى وأدوات تزيين أخرى من الزجاج : بعض مصابيح زيت ربما كانت من العصر البيزنطي أو من عصر تال .

ويجب ألا نهمل ذكر بعض قطع العاج المزين ، وأربع قطـع نقود ، وكل هذا من العصر الأموي والاصلاح اللاحق .

٦ — النقوش

لقد سبق أن أشرنا الى قطعة من القرآن بالرسم . ان بعض النقوش الحديثة على طبقة الجزء العائد الى الأجزاء العليا لبرج الدخول ، لا تعطي نتائج كبرى . والكتابات الواقعة في فوهة البركان ذكرها دوفوغيه ، كما قلنا في أعلاه . والقسم الصفوي نشر باعتناء بعد اكتشافه في مرجع الكتابات السامية وأيضاً في المجموعة (كوربوس) . وخلال كل الحفريات درس ممثل مديرية الآثار والمتاحف ، السيد أبو الفرج العش ، الكتابات الكوفية : فصلت ثمانية منها من الصخر على نفقة المديرية ونقلت الى دمشق .

وسينشر السيد أبو الفرج العش هذه النقوش في الوقت الذي تنشر فيه الحفريات ونحن واثقون من أن النتائج ستزيد معرفتنا بتاريخ الأمويين كثيرا ، لأننا نجد فيها نحو ٤٠ إسماً ومنها على الأقل أربعة أسماء لأولاد الخليفة الوليد الأول ذكرت مراراً ، وثلاثة نقوش مؤرخة.

ودون أن نستبق نتائج السيد أبو الفرج العش يبدو لنا من المناسب أن نستخلص بعض النتائج التالية :

١ — منذ أزمنة ما قبل الإسلام كان جبل سيس مأهولاً بالسكان ولكن في بعض العصور فقط.

٢ — إن ٩٣ هجرية (التي تقع في زمن حكم الوليد الأول) تعطينا تاريخاً لسكنى الأمويين في هذا المكان ، و ١١٣ هـ التي تقع خلال حكم أخيه هشام تحدد تاريخاً آخر.

٣ — ان الكثرة التي نذكر بها أسماء عائلة الوليد تجعلنا نحكم بأن القصر كان في الغالب مأهولاً بعائلة هذا الخليفة . ولهذه الأسباب فان اقتراح آ. موزيل ، بتطابق سيس اليوم مع اسيس المذكور في المصادر كمقام للوليد الأول ، يبدو لنا رصينا.

٥ — مقارنات مع العمارة المعروفة في زمن الأمويين

ومن السابق لأوانه ولا شك أن تقارن عمارة سيس مع مقامات الأمويين الأخرى قبل ختام الحفريات ، ومع ذلك ، إذا قصرنا دراستنا على بعض المشابهات فالنتيجة لا تخلو من فائدة . (نعتبر هنا قسطل وخرانه أبنية أموية ، دون أن ننسى بأنه لا يوجد دليل أكيد من تاريخ أموي أو من تاريخ قبل الاسلام).

١) — مواد البناء واتقانه

ان استعمال البازلت والإتقان الدقيق في نحت الأحجار كما في برج الدخول في سيس يقيم علاقة أكيدة بين القصر والعمارة بالبازلت في حوران التي ما زالت عظيمة في بصرى مثلاً.

والمثال الأقرب في المكان والزمان يقع في برقع الذي بناه الوليد الأول في ٨١ / ٧٠٠ وكان أميراً آنذاك (اللوحة XIII, 1 . ان برج برقع الداخلي هو الذي نستطيع خاصة مقارنته مع الفائدة ببرج الدخول في سيس : نفس الترتيب ، أي في باب الدخول المنفذ بالحجر المنحوت جداً ، نجد القوس المدبب نفسه وتساوي بعض المداميك في كتلة البازلت الخام مع مداميك الأحجار المنحوتة جيداً ، الأولى في مستوى الطاق والأخرى أعلى بمتر ونصف . والترتيب

نفسه نلاقيه في مداميك جدران السور المحفوظة جيداً، ولكن يبقى أن نعلم ما إذا عملت أيضاً من الطوب؛ وفي جميع الوجوه، من الجدير بالملاحظة، أن بناء من اقدم الأبنية المدنية في عصر الأمويين قد بني حسب هـذا الإتقان ومعرفتنا المكتسبة حديثاً تتطلب دراسة أخرى لقصر برقع.

ان نفس الترقيب من وجه من البازالت، مع جدران بالطوب، يميز حصناً صغيراً مهملاً نوعاً ما منذ آخر نشرة ظهرت في موضوعه من قبل م. د. شلمبرجر. ففي رسم الشاعر في منطقة تدمر (اللوحة XIII, 2) بناء صغير قياسه نحو ٢٥ بـ ١٩ م لم ينف عنه شلمبرجر تاريخا أموياً وهذا ما يبدو لنا أيضاً أكثر احتمالاً منذ معرفتنا بعمارة سيس.

ويمكن بالطبع انابـة البازالت في جدران الكتل بنوع آخر من الحجر، ففي قصر الحير الغربي مثلاً حجر كلسي، فقد شيدت جدران الطوب على بعض مداميك من الآجر المشوي، بينما يظهر في الرصافة أن جدران الطوب في القصر الأموي شيدت على الأقل في قسم منها على آجر مشوي.

وأخيراً يمكن تبديل جدران الطوب بآجر مشوي كما في المشتى والطوبة: وقد بنيت كتل الحجر بشكل مماثل لقصر الحير الغربي حيث نجد القطع نفسه في الطوب ٤٠ بـ ٤٠ بـ ١٠ سم كما في سيس. حتى أن الآجر المشوي الذي يشكل أقواس الأبواب يجب أن يكون مماثلاً، ولكن لا شيء من هذا في مقامات الأمويين الأخرى أما بسبب التقاليد المحلية أو سماكة الجدران. كما نجد في قصر الحير الغربي الأطر الخشبية في فرجه الأبواب المبنية بالطوب.

ويوجد أحياناً في العمارة الأموية نموذجان لقوس سيس: نموذج الأقواس على اسكفات الأبواب، حيث يكون الآجر المشوي الرقيق جداً منفصلاً بطبقات ضخمة من المونة. وهذا النموذج هو القاعدة في قصر الحير الغربي، والنموذج الآخر، قوسان أحدهما فوق الآخر، الذي يسود في بناء الحمام في سيس، مستعمل خاصةً في داخل القصر الصغير في قصر الحير الشرقي. ان جميع أبواب القسم الأصلي في المشتى ترى هذا النوع من القوس (اللوحة XIV, 1) كما في داخل الطوبة. وتوجد منه أيضاً أمثلة متأخرة في اخيضر وفي واسط.

أما نموذجا قرميد السطح. فيكفي أن نذكر بعض الأمثلة الكلاسيكية في سورية قبل الإسلام. وعلى ما يظهر أنه لم ينقب عن القرميد إلا في خربة المفجر، ولكنه من نوع مسطح؛ ولنذكر مع ذلك أن هذا القصر لم يتم.

٢)- المخطط

وكما في سيس نجد في خربة المنية (اللوحة XV , 1) مربع جدران السور مع ابراج الزاوية والابراج المتوسطة ، إلا أن الشطر في المنية اسطواني والابراج ممتلئة باستثناء واحد منها . ولكن برج الدخول مشابه جداً . وفي الحصن الصغير ، الذي ذكرناه آنفاً وهو حصن رسم الشاعر ، يوجد مدخل مشابه نوعاً الى مدخل سيس ، وربما ينقصه القوس المثقوب في ظاهر البرج . وكذلك أبواب الدخول في حوران والرصافة التي تشكل زمرة مع الأمثلة السابقة الذكر ، ومع هذا فالمراد هو ربعا الأبراج التي تحف بالمدخل الأصلي . والأبراج المتبقية من جميع القصور المسماة حتى الآن كثيفة إلا في الطوبة ؛ فقد وجدت ، عدا الأبراج الممتلئة ، بعض أبراج مع نفس نموذج الحنية نصف الدائروية التي في سيس .

ونستطيع بسهولة أن نقارن أبعاد قصر سيس مع أبعاد البناء الصغير في قصر الحير الشرقي حيث يكون متوسط جدران السور ٦٦ متراً . ومن الملاحظ أن سماكة هذه الجدران نفسها متشابهة تقريباً : ٢,٠٣ م مقابل ٢,٠١ تقريباً في سيس .

إن معظم القصور الأموية ذات أفنية مع أروقة أعمدة ؛ ولكن يمكن مقارنة سيس بالمنية حيث يكون الفناء محاطاً برواق يضم سبع مسافات بين دعامات زاوية ، وكذلك في عنجر حيث يكون للقصر في الداخل فناء مع أروقة ذات ست مسافات احتمالاً ؛ ولكن يجب أن تعطى الأهمية الأكثر الى التشابه بين سيس والمنية .

ولفحص نماذج بيت في سيس نقترح أن نتكيف مع تصنيف السيد ك . آ . س . كريزول يميز بين النموذج الفارسي والنموذج السوري الذي يميز كل البيوت التي سنناقشها (اللوحة XVI,1) . ويبدو لنا من المناسب أن نظهر اختلاف هذا النموذج . فمن أجل النموذج الموجود في سيس في وسط الجناح الجنوبي ، أي الوحدة التي تضم القاعة الثالثة عشرة كنواة ، نقترح أن نسلك التسمية الموفقة للآثاريين في المنية الذين يسمون هذا النموذج الموجود مرتين « وحدة القاعات الخمس » . وبالتالي فان بيت القسم الجنوبي الشرقي في سيس ، الذي يضم كنواة القاعة الثامنة وحولها القاعات : الرابعة ، والعاشرة ، والسادسة ، والسابعة والرابعة يكون « وحدة القاعات الست » . وفي سيس نفسه تتميز الوحدتان بأن القاعات الجانبية تتصل دوماً مع بعضها

بأبواب . ولا نعلم في العمارة الأموية إلا « وحدة القاعات الخمس » التي تظهر هذه الخاصة : والمقصود بذلك خربة المفجر حيث الاختلاف الوحيد في فقدان الحنية وجمع الدعائم لحمل الآزج السريري للقاعة الوسطى (اللوحة XIV,2) . وكما في سيس أن هذه الوحدة واقعة بالضبط مقابل باب الدخول ، ولكن المنقبين أوضحوا لنا بأنه كان من المحتمل قليلاً ان بنيت هذه الوحدة لتكون قاعة اجتماع بسبب تغير مشروعهم .

ان نوع « وحدة القاعات الخمس » مع قاعات منفصلة فيما بينهما توجد مرات عديدة في لعمارة الأموية في المشتى وخرانة والمنية . ووحدة ثانية في المنية غير متناظرة ؛ قاعات جانبية منفصلة من جهة ومتصلة من جهة أخرى ، وهذا ما يمكن أن يلاحظ أيضاً في الرصافة (اللوحة XV,2) .

ولا نعلم أيضاً وحدة أخرى من « وحدة القاعات الست » مع نفس الترتيب الذي في سيس ، ولكننا بالمقابل ، اكتشفنا في قسطل تنوع القاعات الجانبية المنفصلة إذ ربما تكون السادسة فيها مقترنة ببرج الزاوية كما في سيس . ويوجد أيضاً في الطوبة (اللوحة XVI,2) وحدات من ست قاعات جانبية كلها منفصلة : ثلاث منها واقعة في الجناح الجنوبي وتظهر نفس البناء النصف دائروي في البرج الأوسط ، وموضوعة بشكل خارج عن المركز بالنسبة الى الأبراج المطابقة ؛ والقاعة السادسة المنقسمة بجدار مع باب ، تتصل بباب واحد مع القاعات الجانبية ، وبفتحة أخرى مع القاعات الأخرى .

وما زلنا نجهل توزيع البيوت في قصر الحير الشرقي . أما بيوت قصر الحير الغربي وهي أكثر تعقيداً فمن الممكن فهمها كنسخة متطورة « لوحدات القاعات الخمس » حيث تشكل الجانبية منها ملحقاً وتكون مرتبة بصورة موازية للواجهة .

وهنالك تشابه بين سيس وداخل قصر عنجر : وفي هذا الموضوع تكون فرضيتنا في العمل كما في سيس ، القسم الغربي من الجناح الجنوبي له نفس الترتيب الذي هو للجناح الشرقي ؛ وابتداء من هنا نصل الى أن نلاحظ أن تنظيم سيس يشابه الجناحين الشرقي والغربي في عنجر : في الوسط يضم الجناحان « وحدة القاعات الخمس » نفسها التي هي في سيس ، إلا أن البناء النصف دائروي في سيس قد استعيض عنه في عنجر بباب . ونحو الغرب والشرق تأتي أيضاً وحدة القاعات الست ثم واحدة شبيهة بالوحدة رقم ٣ في سيس ، إلا أن هذه في عنجر تتصل مع القاعة السادسة في الوحدة لا مع القاعات الجانبية للبيت .

وبالرغم من اختلاف الاتصال بين القاعات ، وإن كان يجب ألا ننسى أن القاعات الجانبية في عنجر ليست مرتبطة ببعضها ، فان التشابه مع سيس أهم هنا مما في أي قصر أموي آخر .

إن ملاحظاتنا في عنجر مؤسسة على الفحص الدقيق ، ونحن ننتظر بفارغ الصبر النشرة الجديدة لتنقيبات صديقنا الكبير الأمير موريس شهاب . ويجب علينا أن نتذكر بأن عنجر باعتبارها حسب كل الاحتمالات ، بناءً من أبنية الوليد الأول ، يجب أن تقبل بأنه الخليفة المرجح الذي بنى هذا المقام .

٣ — المخطط الشاقولي

وكما في سيس كانت قصور قصر الحير الغربي وخرانة وربما الرصافة ذات طابقين ؛ ولما لم يحفظ معظمها جيداً فمن الصعب علينا أن نقارن برجها مع برج الدخول في سيس ؛ وعلى أي وجه ليس لدينا مثال من نصف برج وشبابيك في الطابق الأعلى ؛ ان لقصري المفجر وخرانة شباكاً كبيراً ولكن في محاذاة الواجهة : وبسبب خصائص المخطط لا يمكن أن يقارن مع الفائدة الدهليز في داخل البرج مع الآزج السريري وقوس المدخل المار في الوجه المنصف دائروي للبرج . وإذا اعتبرنا التشابه مع قصر الحير الشرقي ، حيث أبراج السور ما زال لها أو كان لها قباب بالآجر المشوي ، فان وجود آزج في ذروة البرج يبدو مرجحاً وإن كان يعوزنا الدليل الصحيح على هذا الموضوع .

وإذا تجردنا من الواقع في سيس وهو الدعائم في النظام الأسفل ، لشاهدنا في خربة المفجر أن الواجهة الخارجية للقصر وواجهة الفناء مشابهة لواجهة الفناء في سيس ، مع نفس المسافة الوسطى الأعرض من الباقي . وكذلك نلاقي الدرابزين بأقواس مرتين : في ذروة البناء الصغير خارج القصر ، وفي النظام الأعلى لواجهة القصر الخارجية ، ولكن بتنفيذ أكثر غنى وأكثر تعقيداً . وفي الحقيقة أن الدرابزين تؤلف مجموعتي أقواس موضوعتين فوق بعضها ومزينتين بتزيين زخرف نباتي .

ويوجد أيضاً في قصر الحير الغربي درابزين بالجص محفوظة في متحف دمشق ، وهي حسب ر . و . هاملتون عمل يرجع أصله الى بلاد ما بين النهرين ، ولكنه نفذ بأيدي الصناع السوريين : ففي بلاد ما بين النهرين كانت توجد قديماً أقواس نصف دائرية مفرطة بالجص ومزينة

بدوائر صغيرة موضوع بعضها فوق بعض : في طيسفون (المدائن) ، في دار خاصة في المعارض من القرن السادس (اللوحة XIV,3) . وقد اكتشفت البعثة الألمانية قوساً صغيراً توأماً بالجص بنفس التزيين ؛ والجص مثبت على نواة اسفين من الآجر المخلوط بالجص كما في سيس نفسه ؛ ونعرف في اخيضر سلسلة أقواس مشابهة ولكن بقوس على ثلاث طبقات . ووجدنا أقواساً مزينة بعصابات ذات خطوط منكسرة ، ولكن في هيئتها العمياء فقط ، مثل سلسلة الأقواس العمياء في باب الدخول : كانت بالجص في الرصافة ولكن بالحجر في اخيضر ، وفي بناء قلعة عمان ، وفي خرانة .

٤ – التزيين

كان غطاء خارج قصر سيس ، في رأينا ، القاعدة في العمارة الأموية . والمثال الأقرب للرسم الجداري في الداخل يقع في قصر الحير الغربي حيث وجدت قاعات كاملة بتقليد الرخام رممت بشكل عظيم في متحف دمشق (انظر عدا ذلك الفرسكتين الوجهيتين وقطعاً أخرى) . إن كل هذا يذكر جيداً باللغة الفنية في قطع سيس ، ومع ذلك نفضل أن ننتظر نتائج دراسة أعمق ، لأننا نفترض أن تزيين سيس ربما كان أقرب الى النماذج الساسانية . ولقد رأينا صدفة نفس التزيين بالخطوط الملتوية في شبابيك برج الدخول كما في جدار سور البناء الأكبر في الباب الأقرب الى الجنوب من الواجهة الشرقية .

٦ – التاريخ

إن حججنا النازعة الى البرهنة على تاريخ أموي هي التالية :

١ – إن القصر والحمام والجامع متطابقة تماماً في تنفيذها ، حتى لتبدو بأنها تعود الى فريق واحد من الصناع . وان حكم السيد سوفاجيه ، القائل بأن وجود الجامع يمنع اختيار تاريخ سابق للاسلام ، يبدو مؤيداً بنتائج الحفريات .

٢ – ان النقود ، وليست بكمية كبرى ، ترجع كلها الى العصر الأموي .

٣ – إن آية القرآن بميزاتها الكتابية تنفي تاريخاً تالياً للعصر الأموي .

٤ – ان الجزء الكوفي من الكتابات في فوهة البركان يربط بصوره وثيقة الموقع مع التاريخ الأموي وخاصة مع عائلة الوليد الأول .

٥ ـ ان التسلسل الطويل للحوادث الفنية يقرب القصر من سلسلة مقامات الأمويين . ويبدو لنا مفاجئاً أن ينسب القصر الى خليفة معين ، ولكن معرفة النقوش الجديدة المتصلة بالدلائل الموجودة في بعض المصادر التاريخية تزيد يقيننا في أن نرى في الوليد الأول الخليفة الذي أمر ببناء القصر ، وهذا لم تكذبه نتائج حفرياتنا . ان التاريخ الذي يمكننا التمسك به هو ٨٨ ـ ٩٠ / ٧٠٧ ـ ٩ . وحسب كل ما نعلم لا يوجد محراب مع كوة قبل هذا التاريخ ، وعليه فالوليد الأول نفسه هو الذي كان قد أدخل هذا العنصر في جامع النبي في المدينة ؛ وبالتالي فان التاريخ ٩٠ / ٧٠٩ يبدو لنا أنه الأرجح .

وإذا افترضنا أن الوليد الأول كان الباني لقصر سيس ، فذلك يجعل منه مقاماً من أقدم مقامات الأمويين في الصحراء ، يضم أول جامع وحماماً من أقدم الحمامات الاسلامية الواقعة خارج المدن وكذلك العمارة مع أقدم تزيين بالجص فى الاسلام . وهذا التاريخ يمكن أن يوضح أيضاً بالمقارنة مع غنى خربة المفجر أو قصر الحير الغربي ، المنظر القديم للقصر الظاهر في شكل الدرابزين وتزيينه .

وتبقى أيضاً قضية معرفة ما إذا كان تشابه بعض العناصر ، بالنسبة للنماذج الساسانية ، يقيم الدليل وحده على التأثير العظيم والمعقد للثقافة الساسانية على الأمويين ، أو كان بين نساء الوليد الأول أميرة ساسانية ، غنيمة من فتح العراق .

ويبقى أخيراً أن توضح التشابهات الغريبة بين سيس وقصر الحير لهشام أخيه وخلفه الحقيقي الوحيد كرجل دولة عظيم بين بني مروان .

وسنخص التقرير القطعي بنشر بعض الملاحظات عن وضع سيس في شبكة الطرق في زمن الأمويين ، وتقصي أسباب وجود مقامات الأمويين في الصحراء ، عندما تكون معرفتنا بسيس أتم وأوفى .

تعريب الدكتور نور الدين حاطوم